"Communiquer" ووصل وبلغ

إعداد محمد الرضواني

التواصل ! إنه مفهوم مزعج ، مفهموم فضفاض، حيث نعثر على القطارات والحافلات والتلغراف والقنوات التلفزية والملتقيات والأوعية ورافعات السفن، وبطبيعة الحال هناك قافلة من الراتونات الغاسلة (1)، ما دامت الحيوانات تتواصل فيما بينها كما علمنا ذلك لوريتز وتنبرغن وفيش .

وهذا ما يجعله مفهوما بالغ الجاذبية. فعلى الرغم من أن مجموعة كبيرة من الباحثين والمفكرين انتقدوه بشدة ورفضوه أحيانا ومزقوه، فإنه يطفو من جديد على السطح بكرا خالصا. إن التواصل أمر جيد. وآخر ما تفتقت عنه الأذهان هو أن هذا المفهوم ينتقل الآن من العلاقات الإنسانية إلى العلاقات العامة: فلقد تحولت الوكالات الإشهارية إلى مقاولات للتواصل. وفي ميدان السياسة، وهو ميدان لا يختلف عن سابقه، أضيفت إلى وزارة الثقافة مهمة أخرى هي "التواصل". وهو ما يحدث في الولايات المتحدة، فإمبراطورية هوليويد تتحول الآن إلى Warner Communication inc وأصبح صوت أمريكا جزءا من " الوكالة العالمية للتواصل." ومن أجل تنظيم هذا الحقل الدلالي الفضفاض وتحديد ما نعنيه بالتواصل، سنحاول أن نرسم بعجالة المسار المتلون لهذا المفهوم في اللغتين الفرنسية والأنجليزية.

إن "فعل " تواصل" و" الاسم " التواصل" ظهرا في اللغة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر. ولقد كان المعنى الأساس " المشاركة في" قريبا من الفعل اللاتيني communicare " الجمع بين الأشياء" ، و" وضع الأشياء ضمن علاقة" .

فإلى حدود القرن السادس عشر كانت كلمتا communiquer و communication قريبتين جدا من كلمة communier و communion وهما لفظان قديمان لكنهما (في القرن العاشر - الثاني عشر) منحدران من .communicare وبإمكاننا أيضا أن نربط هذين المفهومين من communier ، بمعنى " ملكية جماعية ". وهو معنى ما زال مثبتا لحد الآن في القاموس ليتري، Littré، مع أن قواميس كثيرة لم تعد تشير إلى هذا المفهوم .وانطلاقا من هذا المعني الذي يحدد معنى كلمة communiquer في " الاقتسام مع اثنين أو أكثر " سيظهر معنى آخر في القرن السادس عشر ويحيل على " قاسم " خبرا ما. وبناء عليه ستبدأ كلمة communiquer في نهاية هذا القرن دالة على الفعل " نقل" (نقل مرضا مثلا). قرن بعد

ذلك سيعطي قاموس فيروتيير (1690) مثالا " إن المغناطيس ينقل فضائله إلى الحديد ". وفي القرن الثامن عشر ستظهر " الأنابيب المترابطة .."

وهذا يدل على أن الاستعمالات الدالة عامة على "التقاسم" ستتراجع إلى الوراء لكي يحل محلها فعل " نقل". إننا ننتقل من الكلي إلى الجزئي. وسيصبح القطار والهاتف والصحف وسائل " للنقل"، أي وسائل للانتقال من أ إلى ب. إن معنى النقل هو ما سيتم تداوله في التصورات الفرنسية المعاصرة.

وهذا المسار هو الذي نعثر عليه في اللغة الأنجليزية أيضا. فعندما ظهرت هذه الكلمة في اللغة الأنجليزية في القرن الخامس عشر، فإنها استندت إلى نفس الجذر .communis وسيكون هذا اللفظ مرادفا ل communion ويدل على " فعل التقاسم " و" وضع جنبا إلى جنب " . وستصبح كلمة communicationدالة على " وضع جنبا إلى جنب". وفي القرن الخامس عشر ستصبح كلمة تواصل موضوعا مشتركا. قرنان بعد ذلك، ستصبح دالة على " الوسيلة التي تمكننا من الجمع بين الأشياء ضمن إطار واحد."

وابتداء من القرن الثامن عشر عندما ظهرت إلى الوجود الوسائل الحديثة للنقل سيعرف هذا المفهوم انتشارا واسعا لكي يصبح مفهوما عاما يعين الطرق والقنوات والسكك الحديدية. وسيصبح ابتداء من 1950 دالا في الولايات المتحدة الأمريكية وفي بريطانيا على صناعة الصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون.

وهذا التصور الأخير هو ما أصبح اليوم سائدا في فرنسا، خاصة في قاموس التقنوقراطيين والقاموس الصحفي. ومع ذلك لم يجد طريقه بعد إلى المعاجم الفرنسية الكبرى (سنة 1981 المترجم).

وفي المقابل نعثر في ملحق 1970 ل Grand Robert على تعريف جديد يضاف إلى التعريفات الأربعة السابقة " 1- الفعل الذي من خلاله نبلغ أحدا شيئا ما، 2- الشيء الذي نبلغه ، 3- الفعل الذي من خلاله نتواصل مع شخص ما ، 4 الانتقال من مكان إلى آخر، ويضيف القاموس تعريفا خامسا ، 5 ميدان العلم : يعين كل علاقة دينامية ضمن حركية ما، نظرية التواصل والانتظام، انظر السبرنطيقا، الأخبار والتواصل.

إن الأمر يتعلق عندنا بأمر بالغ الأهمية. فلأول مرة في التاريخ الدلالي للفظ ما نجد تصورا جديدا يحدث قطيعة مطلقة مع الماضي، وهنا يبدأ تحليلنا : إن لفظ " تواصل" وجد سبيله إلى المجال العلمي.

YVES WINKIN * .

وصل وبلغ

إن السياقات المشار إليها أعلاه الخاصة بكلمة communication تختلف عما يقدمه السياق اللغوي العربي حيث نعثر على كلمتين تحيلان بشكل تقريبي على نفس المعنى لكنهما مختلفتين من حيث المردودية الدلالية .

هناك من جهة كلمة" وصل" التي تشير في كل السياقات إلى علاقة بين اثنين، أو بين نقطتين أو بين حالتين انسانيتين (الوصل والهجر في لغة العاشقين). وجزء من هذا المعنى نعثر عليه في اللغة الفرنسية، حيث إن communiquer تدل على خلق روابط انسانية بين الناس، إلا أنها لا تشتمل على فكرة التعميد كما يشير إليه الفعل communier المرتبط اشتقاقيا بالفعل communiquer ، ولا نعثر من جهة ثانية على فكرة المواصلات، فهذه إضافة دلالية تسربت إلى العربية من المحيط الثقافي الأجنبي.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن التواصل الدال على العلم، غائب، في اللغتين معا، ولم يظهر إلا في فترة تاريخية متأخرة نسبيا، ولم يستعمل في اللغة العربية إلا " بعْديا "حين أصبحت العربية تستعير إشكالاتها الفكرية من اللغتين الفرنسية والأنجليزية.

وهناك من جهة ثانية كلمة " بلغ" الدالة هي الأخرى، وإن بشكل عام، على فكرة الاتصال إلا أنها تختلف عنها من حيث الاستثمارالدلالي المسبق، فالفعل " بلغ" يحمل شحنة دلالية قويةجدا حيث يدل على بلوغ الهدف والغاية ويدل على اكتمال الرجولة والفحولة والعقل، ويدل على النهاية أيضا .

وهو من جهة ثانية يشتمل على فكرة التبشير، بمفهومها المسيحي، فتبليغ الرسالة هي الدعوة إلى سبيل ما دينيا أو طرقيا أو إيديولوجيا، فهي من هذه الزاوية تدل على مفهوم الدعاية المنحدر هو الآخر من مفهوم التواصل. وبهذا يكون البلاغ أوالتبليغ دالا على التواصل ضمن ما يسمى" بالعلاقات العامة "، أي محاولة التحكم في السلوك الإنساني وتوجيهه وفق غايات محددة مسبقا وهي الفكرة التي يشتمل عليها الإرجاع كما ورد في تصور فيينر (انظرمقال س بگراد ص 6)

وإليكم بعض المداخل التي نعثر عليها في لسان العرب:

وصل : وصلت الشيء وصلا وصلة، والوصل ضد الهجران، ابن سيده : الوصل خلاف الفصل، وصل الشيء بالشيء يصله وصلا وصلة (....) ، وفي التنزيل العزيز : ولقد وصلنا لهم القول، أي وصلنا ذكر الأنبياء وأقاصيص من مضى بعضها ببعض، لعلهم يعتبرون.

واتصل الشيء بالشيء لم ينقطع. ووصله إليه أوصله : أنهاه إليه وأبلغه إياه .

وفي الحديث : رأيت سببا واصلا من السماء إلى الأرض أي موصولا.

بلغ : بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا، وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغا وبلّغ تبليغا.

وتبلغ بالشيء أي وصل إلى مراده، وبلغ مبلغ فلان ومبلغته، والبلاغ ما بلغك.

وتقول : له في هذا بلاغ وبُلغة وتبلغ أي كفاية، وبلغت الرسالة.

هذا بلاغ للناس وليُنذروا به.

بلغ الغلام إذا احتلم كأنه بلغ وقت الكتاب عليه والتكليف.

وإذا بلغن أجلهن أي قاربنه.

وبلغ النبت انتهى.

YVES WINKIN : La nouvelle communication , éd Seuil, 1981, pp 13 - 15 * .

1- raton laveur - راتون غاسل وهو حيوان أمريكي لا يأكل شيئا إلا بعد غسله

صدر حديثا

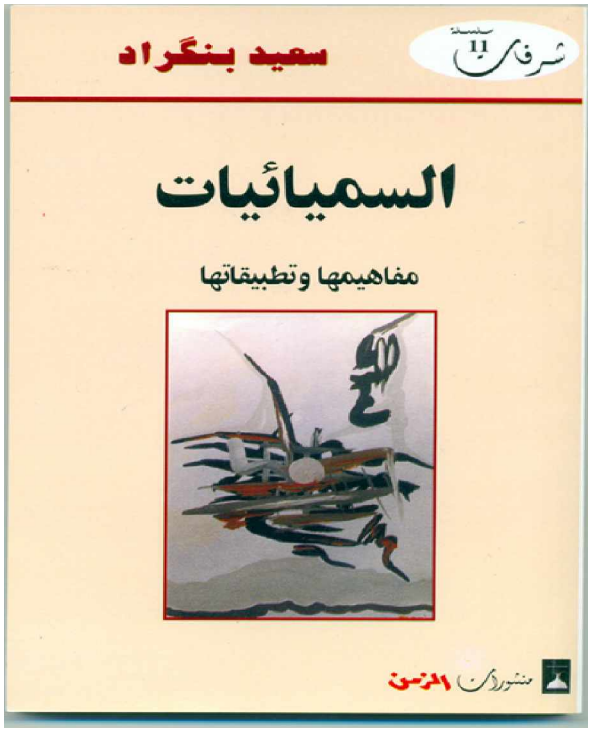
سعيد بنگراد
السميائيات
مفاهيمها وتطبيقاتها
منشورات الزمن